المحاضرة الرابعة

3. النظرية المزدوجة Mixed – Scaning

يتفق عالم الاجتماع أتزيوني مع النقد الموجه إلى نظرية الرشد الشمولية، كما أنه يطرح انتقاداته للنظرية التراكمية. فهو يقول على سبيل المثال: إن القرارات التدريجية تسهم في خدمة مصالح الفئات المتنفذة والجماعات المستفيدة في المجتمع على حساب الفئات الضعيفة والأقليات التي تغمط أو تهمل حقوقها. كما أن اهتمام القرارات التدريجية بالتوقعات القريبة المدى سيؤدي إلى الاستقرار والاستمرار على الأوضاع الحالية، ويحد من الإبداع والتجديد في المجتمع. والنقد الآخر هو أن القرارات الكبيرة المتعلقة بظروف استثنائية كالحرب يقع خارج نطاق النظرية التدريجية، ولذلك فإن الحاجة قائمة لاتخاذ قرارات عميقة وأساسية لتكون محركة للقرارات التدريجية.

ويطرح أتزيوني نظريته المزدوجة لاتخاذ القرارات التي توفق بين الجذرية والتدريجية، وتمكن من اتخاذ سياسات تحافظ على النظام القائم وتعمق التوجه نحو التغيير، ويعزز رأيه بالمثال الآتي: لنفرض أننا نريد وضع نظام للتنبؤات الجوية حول الطقس وللمحيط الجوي حول الأرض، فإن الطريقة الرشيدة تتطلب نصب آلات التصوير المتعددة لرصد ومراقبة الأجواء المحيطة وفي أوقات مختلفة لتسجيل التغيرات بصورة دورية. وعندها سيتطلب الأمر التعامل مع معلومات وفيرة وهي تتطلب جهدا في التحليل، وهي تتجاوز إمكانياتنا المتاحة لمعرفة تقلبات الرياح وتشكل الغيوم وحركتها واتجاهات الأعاصير وكميات الأمطار المتوقع سقوطها. أما الطريقة التدريجية فإنها تكتفي بمراقبة الأجواء المحيطة والقريبة وتقتصر على رصد التغيرات الطارئة على الطقس الاعتيادي تاركة المعلومات التي قد تكون ضرورية لو أردنا معرفة الطقس في المناطق البعيدة.

إن النظرة المزدوجة تتضمن عناصر من كلا الطريقتين باستخدامها آلتي تصوير، إحداهما ذات عدسة عريضة ترصد كل أجزاء السماء ولكن بدون تفاصيل أو بدون تركيز دقيق، أما الأخرى فتركز عدستها على المناطق التي كشفتها الآلة الأولى وأوضحت ملامحها بأنها تحتاج لتصوير أدق وأوضح. وإذا كانت هذه النظرة المزدوجة ستخفق في تشخيص المناطق التي يمكن أن تحدث فيها تقلبات لكنها تحتاج إلى آلة تصوير أدق وأشمل، فإنها لن تخفق في تشخيص التقلبات ومواقعها في مناطق غير مألوفة كما تفعل الطريقة التدريجية. فالطريقة المزدوجة تسمح لمتخذي القرارات بتوظيف الطريقة الرشيدة الشاملة والنظرية التدريجية في المواقف المختلفة، ففي ظل ظروف معينة تكون التدريجية مناسبة أكثر من الشاملة وفي ظروف أخرى يكون العكس هو الصحيح، وهذه الطريقة التوفيقية تنسجم أيضا مع قدرات متخذي القرارات وقابلياتهم المختلفة. وبصفة عامة كلما كان متخذو القرارات أكثر قدرة لتنفيذ قراراتهم اتسعت نظرتهم التي يخوضون غمارها وكلما كانت نظرتهم أعمق وأدق كانت قراراتهم أفضل.

النظرة المزدوجة هي نظرة توفيقية بين النظرتين السابقتين، وهذا واضح من شرح اتزيوني للكيفية التي تستخدم بها عمليا، وهي تعمق فهمنا للتباين في الظروف التي تخذ فيها القرارات إضافة إلى تباين نطاقها وتأثيرها.